أو بدون دلالة، انْ حاول أحد رفعها ضده.

في الستينات، نشر الشاعر السوفياتي يفتيشنكو قصيدة شهيرة هي «بابي يار»، كان محورها «العذاب» اليهودي عبر التاريخ. ونعتقد بأنها من أنجح القصائد الصهيونية، بسبب انها انطلقت من هذا المنطلق بالذات، أي المرجعية القائمة في الثقافة الغربية، وانها لم تكن معارضة أو سجالاً حول الحقوق في فلسطين، بل كانت تجسيداً لهذا «العذاب» الذي أصبح اليهودي، بسببه، «جديراً بأن تكون قضيته رمزاً لقضية الانسان». فهو ـ كما تقول القصيدة ـ من عانى العبودية في الحضارات القديمة (مصر وبابل)؛ وهو من مات معلّقاً على الصليب! وهو الفرنسي المظلوم دريفوس؛ وهو هذا الروسي الذي يمجّده نشيد الشبيبة. وأخيراً، لا يمكن ليفتيشنكو ان يكون روسياً حقاً، الّا اذا كان «ذا موقف يهودي» أيضاً:

«ما من دم يهودي في دمي

«غير انني، كأي يهودي، يبغضني كل لاسامي

«ولهذا السبب

«فأنا روسي حقاً!»(٣٤)

ردّاً على هذه القصيدة جاءت قصيدة الشاعر الفلسطيني يوسف الخطيب(٣٥). أو لنقل انها جاءت جدلاً لتذكّر الشاعر يفتيشنكو بقضية هي ليست قضية قصيدته؛ لتذكّر بالفلسطيني الذي تمثّل مأساته الوجه الآخر لقضية «شعب الله المختار». وكأن الخطيب قد افترض، أساساً، ان انفعال يفتيشنكو بقضية اليهودي هو تمجيد للمذابح التي اقامتها اسرائيل للفلسطينيين والعرب، مع ان يفتيشنكو هو، والكثير من الكتاب الصهيونيين، أذكى من ان يقولوا ذلك، أو يطرحوا قضية اليهودية اللاسامية من هذا المنظور. وهو الذكاء الذي يجعل خطابهم في مأمن من اثارة الجدل السياسي. ويجعل هذا الخطاب قادراً على التأثير في وجدان القارىء. وبالمقارنة بين قصيدة يفتيشنكو وقصيدة الخطيب نجد ان الاول تخطّى قضية الجدل السياسي ليوصل الى القارىء صورة بمستندات لا يجهلها أي قارىء غربي أو متشبّع بالتوراة، فيما اهتم الثاني بالجدل السياسي، مستنداً الى مستندات «خلافية»، هي ليست، في الحصيلة النهائية، من أساسيات الثقافة العامّة في الغرب، ناهيك عن انها جدل مفاهيمي بين مفاهيم مثل معنى «المدنية» و«التحضّر» و«الرجل الابيض» في سياق مناقض لمفاهيم الانسان الغربي(٣٦).

وهكذا، في سياق هذه المقارنة، يبدو لنا الخطاب العربي أقل جاذبية وتأثيراً، بسببين: الاول ايديولوجي يمثّله السجال ضد المفاهيم الغربية على أرضية غير مشتركة بينهما؛ والثاني سبب فني يتعلّق بالقالب الذي لم يقدّم تجربة مشخّصة تستطيع الاستيلاء على اهتمام القارىء، بل قدّم جدلاً، أو مقالة تحتمل النقاش. ولكن من يناقش العاطفة التي تثيرها صور التجربة؟

القالب الفني يبدو هنا أكثر أهمية؛ ذلك لأن الرؤية يمكن ان تقوم في الخطاب السياسي أو الفلسفي وما الى ذلك، وتعجز عن التأثير، او تؤثّر، وفق شروط هذا النوع من الخطابات، الّا ان تأثيرها، على الصعيد الادبي والفني، مشروط بشروط أخرى ليست منطقية، بالمعنيين السياسي والفلسفي، بل بمنطق آخر.

فما هو المنطق الذي يتبنّاه الخطاب الصهيوني الأدبي؟